

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ط

الرحلة الحجازية ومناهج المؤلفين فيها في العصر الحديث

سید واضح رشید الندوی (ندوة العلماء لکھنؤ الہند)

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله واصحابه
اجمعين وبعد .

فان الرحلة ووصفها صنف من اصناف الأدب في كل لغة من لغات العالم؛ لأن الرحلة تنقل الانسان من حالة الى حالة أخرى، ومن مكان إلى مكان آخر، ويلتقي المرتحل في خلالها برجال واصناف من الناس، ويواجه أوضاعاً مختلفة وتتغير حالته الذهنية؛ ويشاهد مواضع الجمال والقيح والمحاسن والمساوي؛ ويجرب ما لذ وطاب؛ وما خشن وما تعسر؛ فاذا كان المرتحل ذا شعور مرهف، ويملك قدرة بيانية وصف كل مشاهدته وجربه وكل ما أحس به و نتجت في ذهنه معان و تصورات؛ و يعلق عليها باعتبار شعوره ووجدانه و باعتبار ثقافته و علمه؛ فيحمل وصفه مادة علمية رفنية؛ تفيد غيره ويشتمل ادب الرحلة على فن و ادب و علم؛ ويلتقى فيه الوصف والمدح والتصوير للمناظر و تشخيص الأحاسيس و رسم الشخصيات؛ ويلتقى فيه علم التاريخ والجغرافيه والسياسة والدين ومشاهد الحياة والطبيعة .

وقد كانت الرحلة عند العرب بصفة خاصة مميزة من مزايا الحياة؛ تميزهم عن غيرهم من الأمم؛ لانهم بحكم طبيعة حياتهم ولوضعهم قوم رحل؛ لا يستقرون في مكان كما قال شاعر عربي جاهلي (۱)

ونحن اناس لاحجاز بازضنا مع الغيث مانلقى ومن هو غالب

وقد وصف العرب رحلاتهم في أدبهم، نثرهم ونظمهم؛ وظل السفرووصفه

صنفاً من اصناف الادب العربي فلا تخلو قصيدة طويلة من قصائد العرب في الجاهلية من وصف السفروالارتحال . ولا حاجة الى ذكر امثله وهي كثيرة عامة سواء في المعلقات او القصائد الاخرى ويكاد يصبح وصف الارتحال سمة للشعر العربي وعرفت بعض القبائل بالرحلة لاغراض التجارة وهي آمنة فاذا كانت بعض القبائل ورجالها يرحلون ويختارون الغربية ويصفون مهالكها ومغامراتها كما قال الاخنس بن شريك او كما يصف تابط شرا او الشنقري أو السليك بن ابي السلكه كانت قبائل آمنة تقوم بالرحلة للتجارة كما كان بعض المرتحلين يرحلون لزيارة الأمراء و الاغنياء لطلب المال فكانوا يصفون مناظر السفر الطويل ويصفون القصور وسكان القصور و مناظرها .

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الرحلة في سورة مستقلة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا رِحْلَةَ الْإِسَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" (قريش) و ذكر القرآن الكريم رحلات كثيرة و وصف مشاهدتها كرحلة موسى عليه السلام للقاء خضر عليه السلام وهي رحلته علمية و رحلته لدى خروجه من مصر خائفاً و رحلة اخوة يوسف عليه السلام الى مصر في طلب الرزق و رحلة سليمان عليه السلام و رحلة ذى القرنين و تشمل جميع هذه الرحلات على صور بيانية مؤثرة .

وتذكر كتب التاريخ ان العرب كانوا يترادون الى الهند و فارس والروم للتجارة . و وصف بعض هذه الرحلات التي اشتملت على المغامرات محفوظة في كتب التاريخ والتراجم .

وفي العهد الاسلامي ازداد هذا الارتجاه فخرج العرب من بلادهم و وصلوا الى أبعد أماكن الارض . و بلغت قوافلهم الى افريقيا و اوربا و اقصى الشرق في اوائل القرن الأول . وكانت هذه الرحلات للجهاد و للدعوة و للعلم و للتجارة تحملوا في هذه الرحلات شدائد و محناً لم تحتملها الأمم الاخرى و اشتملت كتب المغازي و السير على وصف هذه الرحلات .

وقد حدث القرآن الكريم على السفر و السياحة لتوسيع المعرفة . والتدبر في آيات

اللّه . والتذكر برؤية عواقب الأمم السابقة، وذكر السفروالسياحة ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة .

فالرحلة طبيعة عربية، وهي صنف من أضاف الأدب العربي ' القديم والحديث ' وهي طبيعة اسلامية كذلك . وقد وسع دائرتها المسلمون سواء كان خروجهم في الدعوة ام كان في الجهاد أم في السفارة الى الملوك والحكام أم كان في طلب العلم، أم كان في طلب الرزق، وكان الخروج من الوطن، وقطع مسافات طويلة، وتحمل الشدائد فيها . والرحلة الى اراضى حديثه، والالتقاء بامم اخرى سمة الحياة الاسلامية، وسجل كثير من هولاء المرحلين انطباعاتهم بأسلوب مؤثر جميل . وقصة جعفر بن ابي طالب لدى النجاشي، وقصة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وقصة ربيع بن عامر لدى رستم وقصة الخروج لغزوة تبوك وحديث الافك وقصة الاسراء والمعراج، وقصة سيدنا عمر بن الخطابؓ لدى فتح القدس نماذج رائعة لأدب الرحلة في العصر الاسلامي الأول.

وتشتمل كتب التاريخ والتراجم على ادب الرحلة في طلب العلم وصبر العلماء الباحثين في السفر.

ونشأ في العصر العباسي الأول قسم جديد من ادب الرحلة وهي الرحلة الخيالية و تمثل هذه الرحلة رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والتوابع والزوابع لآين شهيد الاندلسي، وهما أثران أديبان لهما صلة بالرحلة وان كانت هذه الرحلة خيالية .

ومن اصناف ادب الرحلة الرحلة الحجازية وهي الرحلة للحج والعمرة يصف فيها العازم على الحج والعمرة سفره من بلده الى البلاد المقدسة، ويصف ما جربه من رحلته، ويصف مشاعره، ويصور مناظر خلابة، ويصف وعناء السفر، لأنه يمر بالبحال والادوية، والمروج والبيد، والغابات والبحار والأنهار ويلتقي فيها برجال و يصادف الاقطار، والمخاوف، فتشتمل رحلته على وصف ومدح و تصوير للمناظر، و تشخيص للأحاسيس الذهنية . ورسم للشخصيات والمواد العلمية والجغرافية، والاحوال

الاجتماعية والرحلة الحجازية‘ وهو صنف اسلامي خالص رغم كونه صنفاً أدبياً خالصاً باعتبار المواد الأدبية‘ واشترك في التأليف فيها كبار الادباء في عصور مختلفة و قائمة الكتاب في هذا الصنف طويلة‘ و توجد نمازجاً في كل لغة من لغات المسلمين مثل المدائح النبوية التي توجد في كل لغة من لغات المسلمين‘ وقد وصف القرآن الكريم هذه الرحلة بأسلوبه المعجز الموجز فقال :

”وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوبُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ“ .

مناهج الكتاب

تختلف مناهج الكتاب في وصف الرحلة الحجازية باختلاف طبائعهم و ثقافتهم‘ فيغلب على بعض الرحلات الطابع الجغرافي اذا كان الكاتب مهتماً بجغرافية الأماكن التي زارها‘ ولا يطغى ذلك على العنصر الفن‘ لأن الرحلة عندما تنقله الى الاماكن المقدسة التي يشواق اليها و كان حريصاً على زيارتها منذ مدة اذا وقع بصره عليها فاضت قريحته‘ و ثارت الأشجان والاشواق فتصبح هذه القطعة أدبية خالصة‘ ويبدو كأنه وصف لذيذ الحبيب‘ فان انتقل الى جوانب أخرى انتقل بعد تحيتها تحية لائقة‘ و منهج كاتب آخر منهج علمي رزين هادئ غير منهج وصف للمناظر والعرض الجغرافي‘ و سنقدم في هذا المقال بعض نماذج من هذه المناهج المختلفة .

نقدم اولاً نماذج العرض الفني الوجداني‘ وقد اخترناه من كتاب من نفحات الحرم للاديب الكبير الاستاذ على الطنطاوي‘ وهو يصف رحلته برؤية جبال المدينة و نجد فيها كيف انتقل من حاله عادية إلى الى حالة عاطفية :

يقول "صحت بالدليل يا محمد" ايش تكون هذه الجبال؟ فقال هذه يا نحوى

جبال المدينة، ونحن ان شاء الله الظاهر فيها. قلت ما تقول بى؟ ووثبت وثبة تطاير منها
الأس والخموم عن عاتقي، واحسست كأن قدصب في أعصابى عزم امة وقوة جيش،
وظننت انى لو أردت السحاب لئلته، ولوغالبت الاسود لقلبها، ولو قبضت على
الصخر لفتقته، وجعلت اقفز واصرخ، لا اعى ما انا فاعل، فقد استخفنى الفرح، وسرنى من
هذه الكلمة اكثر ما يسرنى ان يقال لى انت امير المؤمنين صحت بأصحابى وقاموا
كالا سود"

واقرا هذا الوصف للاماكن و بيان الموقع الجغرافى، وكله بأسلوب أدبى :
"مخرجنا من الوادى، وانتهينا الى الفضاء الرحب، رأينا وجه أحد وعلى سفحه
النخيل والبساتين. ورأينا سلعاً وهو جبل عال أسود يقوم حيال احد، فيحجب المدينة
وراءه، فلا يلدو منها إلا جانب الحرة وطرف النخيل، فذكرت قول محمد بن عبد الملك
الزيات وقد ورد بغداد، فحن الى المدينة :

الا ليت شعرمى هل ايتتن ليلة بسلع ولم تغلق على دروب
وهل احد باد لنا وكأنه حصان امام المقربات حبيب
يخب السراب الضحل بينى وبينه فيلدو لعينى تارة ويغيب
وهل شعريكون اكثر تأثيراً من هذا البيت :

فان شفائى نظرة ان نظرتها الى أحد و الحرثان قريب
والى لأرعى النجم حتى كأننى على كل نجم فى السماء قريب
واشتاق للبرق اليمانى إن بدا وازداد شوقاً أن تهب جنوب
ان الاشواق التى عبر عنها الشعراء هى أشواق مادية زائلة، سواء كان بيت امرئ
القيس :

وان شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
أوقول شاعر عربى :

هواى مع الركب اليمانيين مصعد جنب وجمانى بمكة موثق
أما الاشواق التى يذكرها محمد بن عبد الملك فهى اشواق روحانية خالدة ووصفها
وصف خالص ومؤثر يعالج القلب تأثيراً مباشراً .

وعندما يدخل هذا المشتاق حمأة الذى تخيله وتصوره فى ذهنه وعشقه وحن
اليه فى حياته كلها . فكتب يقول وهو يصف حيرته وهى حيرة العاشق أذا وقف امام
حبيبه أو منزل حبيبه فيقول :

”نظرت فى خريطة المدينة كانت معى“ وقلت للدليل أما هذا (ذباب) قال بلى
والله فما يدريك انت“ قلت أما هذا (مسجد الرؤية) قال بلى“ قلت هذه ثنية الوداع“ وخفت
قلبي خفقانا شديداً وخالطني شعور بالهية من دخول المدينة“ والسلام على رسول الله
صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى من الفرح والسرور“ وجعلت اتأمل المدينة“ وقد
دنونا منها حتى لقد كدنا نسير بين بيوتها واحرق بالقبه . وتحتها افضل من مشى على
الأرض وقد شخص بصرى وكدت لا أرى ما كان حولى لفرط ما أحس من جيشان
العواطف فى نفسى“ حتى غاصت المشاهد فى عيني و تداخلت كأنها صورة يضطرب
بها الماء وأحسست كأنى قد خرجت من نفسى“ وانفصلت عن حاضرى . و ذهبت
أعيش فى عالم طلق لأثر فيه لقيود الزمان والمكان .

ويقول : ونظرت فاذا السيارات امام باب السلام فأشترأت الأعناق“ وبرقت
الابصار“ ودمعت العيون“ وخفقت القلوب . وتعالى الهاتف“ ونزلنا ندخل مسجد
الرسول وكانت حال لاسييل الى وصفها قط . اللهم اجعل لنا الى تلك البقاع التى
شرفتها بمحمد معاداً“ .

ويصل هذا الملهوف والمشتاق الى مكة ويأتى موعد زيارة الكعبة فيخاطب
صاحبه :

”كانكم تدنون من الحبيب و دونه المحب والأستار“ فلا تزال ترفع لكم
حجابا بعد حجاب“ وسترأ بعد ستر حتى تروا طلعة الحبيب وابن طلعت من طلعة الكعبة

ها هي ذى الكعبة ياناس، هذا الحطيم، وزمزم، والمقام، لقد صحت الرؤى،
 وتحققت الاحلام“

ويصف الطواف ثم يقول وهو يشعر بأنه عاجز عن البيان ”انه ليس الوصف
 كالبيان ولا يستطيع قلم ولا لسان ان يصف لكم هاتيك العواطف السماوية التي تملأ
 قلب المسلم انه يطوف بالكعبة فيخرج من حاضره وينسى دنياه“. (۲)

ان هذا الكاتب الذى ذكرنا امثله من رحلته الحجازية هو عربى يعيش فى جوار
 البلد الذى زاره، وهو ليس بغريب، فاذا كانت هذه رحلة أديب يعيش على بعد الاف
 الأميال فكم تتورعواطفه و تهيج شجونه.

يقول الشيخ ابو الحسن على الحسنى فى كتابه ”الطريق الى المدينة“ وهو يعلل
 أسباب الشوق والهيام الذى تزحزبه المدائح النبوية فى اللغتين الفارسية والهندية ”علل
 بعضهم بالبعد والهجر، فلهما تأثير غريب فى تفجير منابع القلب والحب و توليد المعانى
 الغريبة و اشعال المواهب الدفينة“ (۳)

وهذه انطباعات نفس الكاتب الذى يزاور المدينة المنورة، فيصف حاله
 وأشواقه، ويتصور عظمة المكان و قدسيته و تميزه على قلب الملفف الولهان فيقول:

”توجهت بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشوق، بحدوثى حادى
 الحب والوفاء، أتحمل متاعب السفر، و أتمثل ذلك الراكب الأول الذى ملأ الفضاء
 نوراً و سكينه، ووصلت الى المدينة المنورة، و صليت ركعتين فى مسجد الرسول صلى
 الله عليه وسلم، و حمدت الله على ذلك ثم وقفت و انا مثقل بمن لا يستطيع أن اكافها
 ، ولا أستطيع ان أقضى حقها، و صليت عليه صلى الله عليه وسلم، و سلمت عليه صلى الله
 عليه وسلم، و شهدت أنه صلى الله عليه وسلم، قد بلغ الرسالة و أدى الأمانة، و نصح الامة
 و جاهد فى الله حق جهاده . و عبد الله حتى آتاه اليقين، و سلمت على صاحبيه الوفيين
 الامينين اللذين لم يعرف التاريخ البشرى صاحباً أوفى لصاحبه منهما ولا خليفة اقوى على

حمل أعباء الخلافة منهما رضى الله عنهما وارضاهما، ثم توجهت إلى البقيع، تلك قطعة صغيرة التي تحتضن اعظم ثروة في الصدق والصفاء والخلة والوفاء وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا وآثروا الغربية والهجرة في سبيل الايمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة وآثروا جوار الرسول صلى الله عليه وسلم على جوار الاحبة والأقارب، فلم ييغوا عنها حولاً ولم يطلبوا له بدلاً: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَلَّوْهُنَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ.

”وتوجهت الى أحد تلك القطعة التي مثلت أروع رواية واعظمها تأثيراً على تاريخ الانسانية رواية الايمان واليقين، رواية البطولة و الوفاء، رواية الحب الطاهر والولاء النادر، وكأني اسمع من انس بن النضر ^{رضي} ”اني لأجد ريح الجنة من دون أحد“ ويقول سعد بن معاذ: ماذا نصنع بالحرب بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقد طار في الناس انه قتل، فيقول انس: ” ماذا نصنع بالحياة بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهنأني أحد ترس ابودجانه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره و النبيل يقع فيه، وهنأترس طلحة بيده حتى شئت، وهنا قتل حمزة ومثل به وقتل مصعب بن عمير أنعم فيان قريش عيشاً ولم يجدوا ما يكفونونه به الا الكساء الذي لا يغطي كل جسده، ياليت احداً اعار العالم شيئاً من هذا الحب والولاء وأهدى للعالم شيئاً من الايمان واليقين، فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم“ (٥)

هذان نموذجان للكتابة الأدبية الفنية التي اشتملت على العواطف واليكم نموذجاً آخر اسلوبه اسلوب هادي، تحليلي، علمي، لأن الكاتب باحث محقق اديب يركز على النقط العلمية ومواضع الاختلاف و آراء العلماء والأدباء فينتقل من وصفه للأماكن الى المباحث العلمية حولها.

انه مأخوذ من رحلة الحج الى بيت الله الحرام للعلامة محمد الأمين الشنقيطي، وقد سافر من موريتانيا الى الحجاز، والعلامة الشنقيطي فقيه، فينتقل ذهنه الى المسائل الفقهية كما ينتقل ذهنه الى المسائل النحوية واللغوية التي يذكرها بمناسبة لقاءاته،

أو اسئلة علمية و جهت اليه خلال زيارته من ادب و نحو و فقه و اصول و تفسير و عقائد و منطق و تاريخ و بيئة و طبيعة .

وقد كتب الاستاذ عطية محمد سالم أحد تلاميذ الشيخ مؤلف الرحلة في تقديمه لهذه الرحلة و بيان ما تتميز فيه عن غيرها من الرحلات الحجازية فقال :
 ”يغلب على أساليب الرحلات و موضوعاتها أن يكون مبناهما عرض خط السير من منطلق صاحبها الى متنهاة و تسجيل معالم الطريق و أحداث المسير و ما جرى لصاحبها من أحداث تسر أو تحزن و تضحك أو تكي و كل ما تشتمل على مجالس ادبية أو مباحث علمية و بين ايدينا من أشهر الرحلات ‘ رحلة ابن بطوطة ‘ و رحلة ابن جبير ‘ و كلاهما رحلا من المغرب الى الحجاز و عادا الى بلده فلم تجد فيهما من المجالات العلمية اكثر من عرض لمشاعر الحج .

ولم اقف على رحلة عنيت بمسائل علمية أو مجالس العلماء و مباحث دقيقة و جليلة ‘ اللهم إلا رحلة النابلسي الى المدينة المنورة ‘ فقد بسط فيها مباحث فقهية و احاديث نبوية و ان كانت لم تتعرض لشيء من المعقول كالمنطق و الأصول و رحلة ابي على القالي .

وهذه الرحلة التي أتشرف بالتقديم لها قد تميزت عن جميع الرحلات بما زخرت به من مباحث غاية في الدقة و آية في الروعة (٦) و مؤلف الرحلة الشيخ امين الشنقيطي يبين نفسه منهجه في رحلته فيقول :

”فليكن في علم ناظره أنا أردنا تقييد خبر رحلتنا هذه الى بيت الله الحرام ثم الى المدينة خير الأنام عليه افضل الصلاة والسلام ليستفاد مما تضمنته من المذاكرة و الاحكام و اخبار البلاد و الرجال و ما تجول فيه الادياء من المحال و الغرض الاكبر من ذلك تقييد ما أحببنا به عن كل سوال علمي سئلنا عنه في جميع رحلتنا
 انه يبدأ رحلته بقوله :

خرجنا من عند اهلنا بجانب الوادي ذى البطاح و المياه و النخيل و ودعنا كل

قريب و خليل، والبين يهيج في القلوب الداء الوحيل، فنرى ورد الحدود يطله جمود
الدموع، والأعين تنكر السنّة والهجو، ماء العيون في الحفن حائره حسيما قال الشاعر:
ولما شجاني انها يوم ودعت تولت دماء العين في الحفن جائر
فلما اعادت من بعيد بنظرة إلى التفاتا اسلمته المحاجر
كان يوم الخروج لهذه القاعدة الكبيرة لسبع مضين من جمادى الآخرة من
سنة سبع وستين وثلاثمائة والـف.

و بعد وصف خروجه من منزله، ووصوله الى مكان "كيفيته واقامته هناك لمدة
قليلة يقول "سألتنا كريمة من بنات العجم عن مسألتين، أولاهما الفرق بين علم الجنس
واسم. والثانية قول المتكلمين ان الصفة النفسية لا يدرك بدونها الموصوف وان الانسان
مثلاً بدون النطق غير معروف.

ويجيب الشيخ عن السؤالين بالتفصيل في رحلته :

ثم يقول : وصلنا قرية تا شكط عند صلاة المغرب فزارنا رجل من فيها من
الأكابر والعلماء وعاملونا معاملة الكرماء . وكنا في ضيافة الرئيس سيدى احمد بن
العربى .

ويقول : وجّه اثناء تلك المذاكرة السؤال عن مسألتين، احدهما بيان كيفية استحاله
تسلسل هيولى العالم .

وبحث المؤلف هذه المسألة ثم استأنف رحلته فكتب : ثم سرنا متوجهين
لتقاء قرية العيون، والعيون التى تسمى بها القرية عيون متعددة متفجرة من جبال هناك
يقال لها باللسان الدارجى "عيون العتروس" وهو بلسانهم الدارجى "التيس" فقابلنا من
فيها من الفضلاء باللائق من الاكرام والتبجيل، وبالف فى اكرامنا قاضيهام مع هدية سنه
واخلاق، وينتقل الى بعض المسائل الفقهية التى جرت فى مجلس القاضى .
ينتقل من مكان الى مكان فى رحلته ويذكر المسائل التى توجه اليه ويذكر جوبه

طلب منا بعض القوم ان نبين لهم تنقيح المناط وتخريج المناط وتحقيق المناط فكان جوابنا :

المناط بفتح الميم هو علة الحكم .

والمناط في اللغة مكان النوط وهو تعليق الشيء على الشيء والصاقه به كما قال حسان رضي الله عنه :

وانت زنيم ينط من ال هاشم كما ينط خلف الراكب القدح الفرد
وقال ابو تمام :

احب بلاد الله ما بين منج الى وسلمى ان يصوب سحابها
بلاد بها ينطت على تمانمي وأول أرض مس جلدی ترابها
وسميت العلة مناط الربط الحكم بها وتعليقه عليها .
ثم يبحث تنقيح المناط وتخريج المناط .

يذكر الشيخ هذه المجالس العلمية خلال رحلته من بلده الى ام درمان ويصف في آخر الرحلة توجهه الى الحجاز فيصف رحلته وبين خروجه من بلده الى ركوبه سفينة الحجاج في ام درمان ٢٥٤ صفحة استغرقها كلها في مسائل فقهية و لغوية وبلاغية واصولية واستقباله الذي قوبل به في كل محطة نزل بها .

يقول : ”ركبنا في السفينة متوجهين الى جدة“ فمكثت السفينة بنا يوما وليلة في البحر ثم نزلنا من الغد في جدة، فنزلنا في بيت لآل جمجوم غمومي لنزول اهل قطرنا فمكثنا ليلتين في جده ولم نجتمع بأحد من أهلها .

ركبنا من جده بعد صلاة المغرب محرمين ملين تلبية النبي صلى الله عليه وسلم ليك اللهم ”ليك“ ليك لاشريك لك ليك“ ان الحملوا النعمة لك والملك لاشريك لك“ .

ويبحث الشيخ مسألة الاحرام فقهياً ويقول ”كان احرامنا بالحج مفرداً لان الافراد في مذهبنا افضل من التمتع والقران“ ويذكر الأدلة الفقهية ايجاباً وسلباً .

ويصف دخوله في مكة المكرمة :

”ثم دخلنا مكة المكرمة تلك الليلة محرمين ملبين تلبية النبي صلى الله عليه وسلم وطفنا تلك الليلة طواف القدوم و سعيانا بعده بين الصفا والمروة“ و كنا عند دخولنا المسجد الحرام قلنا ”اعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم اللهم افتح لنا ابواب رحمتك“.

وعندما وقعت ابصارنا على الكعبة المشرفة قلنا ”اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً وتعظيماً ومهابة“ وزد من شرفه و كرمه لمن حجه او اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً“ ثم ابتدأنا طوافنا من ركن الحجر فقبلنا الحجر الأسود و قلنا ”بِسْمِ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ أَحْمَدُ“.

وهكذا تسير رحلة العلامة امين السنتقيطي الحجازية وهي من أولها الى آخرها رحلة علمية يجد القارى فيها مجالس علمية و مباحث فقهية ولغوية وبلاغية ولا يجد فيها وصفاً لمنظر او تعبيراً عن عواطف لأن طبيعة الكاتب وذوقه علمي خالص كما لا تجد فيها بحثاً جغرافياً ولا تاريخياً كعادة الرحالة الا ان الرحلة حافلة بالمواد العلمية والفوائد اللغوية ويدو الكاتب في المجالس العلمية حيث يقيم او يمكث يوماً او يومين مرجعاً توجهه اليه الأسئلة التي يحار فيها الباحثون وهو يحل المشكل منها“ وعندما يصل الى الاماكن المقدسة ينزل من مرتبته العلمية“ ويصبح زائراً عادياً ويسوده الخشوع والحشمة .

وهنا نموذج آخر وهو عبارة عن وصف ادبي و تأثير قلبي بمشاهدة الديار الحبيبة ابدع في وصفها الكاتب الاديب“ وهو محمد حسين هيكل في كتابه ”منزل الوحي“ وكم يختلف هذا الوصف من وصف الكاتب السابق الذكر“ . اقرأوا وصفه لمدينته جده اول ظهورها وهو في الباخرة :

”اقتربنا من جدة“ وبدت لنا ظهرها و دورها و عماراتها“ وازدادت وضوحاً على رغم نزول الظلام“ وكان مظهرها يغري بالظن انها خططت تخطيطاً جميلاً“ وبنيت على

وفى رحلته الحجازية يقصد الطائف ويصف الطريق إليها ويصل الى حيث كانت تقام قديماً سوق عكاظ، ويقف ويقول:

”وهنا المكان الذى يقولون انه عكاظ، اما أنا فلم أرسئاً استطيع أن ابتنيه، فقد هبطت كشف الظلام، وانطوى الوجود فى دجنة الليل، وكنا فى الثلث الاخير من ذى الحجة، فلم أر للقمر فى السماء من اثر ولم تكن النجوم لتكشف من غطاء الليل شيئاً وهذه الاودية الصامته فى اربعة النهار هي الساعة اشد صحتاً ومهابةً.

والذى يلاحظه الناظر فى كتابته الوصفية أن أروعها ما يتناول الصور للمعنوية أو المشاعر النفسية، فها هو مثلاً يزور غار حراء فى الحجاز، فتهتز نفسه لديها لذكرى النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن عليه، و يتخطى بذهنه القرون الى الماضى البعيد، وإذا هو مسحور بصورة ذلك ليقوم الفذ فى التاريخ، اذ ليرأى له النبى بعين الخيال متمدداً فى الغار وكأنه يسمع صوت الملك اذ يهيب بالنبى ان يقرأ فيتردد وجلاً ويعود اليه الصوت ان أقرأ فيحييه ماذا أقرأ؟ فيتلو عليه الصوت :

”إِقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، إقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي

عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

وهنا يقف هيكل متأثراً فيقول :

”خَيْلٌ إِلَيَّ وَأَنَا فِي مَوْقِفِي مِنَ الْغَارِ“ أَنِّي أَرَى هَذَا الْمَشْهَدَ الْفَذَّ، وَأَنِّي أَسْمَعُ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ..... فَصَفَدْنِي الْفَرْعَ مَكَانِي، وَأَقَمْتُ مَا يَتَنَظَّرُ مَا يَكُونُ مِنْ بَعْدٍ، فَإِذَا النُّورُ الْبَاهِرُ تَرَفَعَ، وَ مُحَمَّدٌ فِي الْغَارِ يَتَضَبَّبُ عَرْقًا، وَيُدَوِّرُ بِنَظَرَاتِهِ فِيمَا حَوْلَهُ، وَ يَهْتَزُّ مُضْطَرِبًا مِنْ رَأْسِهِ إِلَى آخِرَتِهِ، ثُمَّ يَنْتَحِلُ الْحَيْثُ الْعَلِيِّ السَّمَةِ مِنْ يَخْشَى مَكْرَهُهَا

أصابه، ويزداد به الرعب، فينطلق من الغار ما هائماً في شعاب الجبل لعل في هوائه ما يدفع عنه روعه“

هاهو ذا يقف منصتاً كأنما يناديه مناد من السماء انه الصوت الذي كان يحدثه في الغار وهو يحرق في مصدر الصوت ويرى صاحبه فيزداد فزعاً . ويقفه الرعب مكانه، ويلقى بنظره الى الجبل، ويصرف وجهه يمنة ويسرة ثم لا ينفك يسمع ويرى بيت حواسه اذن مصدر سمعه ورؤيته انما مصدرها روعه .

وهذا الصوت الذي اتصل به هو صوت الروح الامين، ما أشد هذه الساعة هولاً وهي مع ذلك للانسانية ساعة النور والرحمة والهدى (٦)

الرحلة الحجازية الخيالية

وصاحبها الدكتور محمد اقبال

و نقدم في الختام نموذجاً من الرحلة الحجازية الخيالية وهي ابداع فني رائع لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر مدة حياته في حب النبي صلى الله عليه وسلم والاشواق إلى مدينته وتغنى بهما في شعره الخالد، وقد طففت الكأس في آخر حياته، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه، وانهمرت الدموع، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه واله وسلم لجسمه الضعيف الذي كان يعاني من زمان الأمراض والاسقام، ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوى وشعره الخصب العذب وقلبه الولوع الحنون، وحلق في اجواء الحجاز، وتحدث الى الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم بما شاء قلبه ووجهه و اخلاصه ووفاءه، وتحدث اليه عن نفسه وعن عصره وعن امته وعن مجتمعه، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر و انفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها و ينتظر فرصة اطلاقها، وقد رأى ان فرصتها قد حانت وهذا أوانها ومكانها، فخطب نفسه بقول الشاعر :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي فانى بمرأى من سعاد ومسمع

فكان شعره في النبي صلى الله عليه وسلم من ابلغ اشعاره واقواها، وكان حشاشة نفسه وعصارة عمله وتجاربه، وكان تصويراً لعصره وتقريباً عن امته، و تعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هذه الايات، وهو يتخيل انه مسافر الى مكة و المدينة شرفهما الله، يهوى به العيش ويسير به الركب على رمال وعساء يتخيل بشدة شوقه و حبه انهما انعم من الحرير وان كل ذرة من ذراتها قلب يخفق فيطلب من السائق ان يمشى رويداً و يرفق بهذه القلوب الخفاقة، ويحدو الحادى بما لا يفهمه، فتثور اشجانته و تترنح اعطافه، و تهيج شعرته و تنطلق فيشارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمقول بين يدي الرسول فيصلى ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه، و ينتهر الفترة فيحدثه عن نفسه وبلاده، و الفترة التي يعيش فيها و عن امته و عن الازمات و المشاكل التي تعانيها و ما فعل بها الزمان و طوارق الحدثن و ما فعلت بها هذه الحضارة الغريبة و الفلسفات المادية، و ما فعلت برسالتها و الامانة التي حملتها و اين هي من ماضيها و خصائصها يرثى لها تارة و يبكي و يشكو هامة و يعاتب و يشكو غربته في وطنه و وحدته في مجتمعة و ضيعة رسالته في امته، و قد سمي هذه المجموعة "بهديّة الحجاز" كانها هدية حملها من الحجاز لاصدقائه و تلاميذه، و لاشك انها هدية مباركة للعالم الاسلامي و نفحة فائحة من نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة، و قد اربى على الستين و وهنت قواه، في سن يفضل فيها الناس الراحة و الاقامة، فما باله يسافر، و هو شيخ و قد أضعفه المرض و الشيب، و السفر الى الحجاز شاق مضم، و قد نصحه الاطباء و الاحبة بالراحة و الهدوء، ولكنه يعصيه و يطيع أمر الحب، و يلبي منادى الشوق و يقول، لقد توجهت الى المدينة رغم شيبى و كبر سنى، أغنى و أنشد الايات في سرور و حنين، و لا عجب فان الطائر يطير في الصحراء طول نهاره، فادب له النهار و اقبل الليل رفرف بجناحيه، و قصد و كره لياوى اليه و يبيت فيه.

كانه يقول لماذا تعجبون اذا قصدت المدينة وهي وكرطائر الروح وما رز المؤمن في أصيل حياتي وفي سن اشرفت فيها شمس الحياة على الغروب، أما رأيتم الطائر اذا جن الليل أسرع الى وكره .

بدأ محمد اقبال سفره وهو شيخ مريض، وسارت به الناقة بين مكة و المدينة سيرا حثيثا وقد قال لها 'رويدك يا حبيبتى' فان راكبك لاغب و مريض و كبير السن، فمشيت في نشوة وطرب ولم تبال كأن الصحراء حرير تحت ارجلها.

يسيرا الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو بالصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم ويريد الشاعر ان يسجد سجدة على هذه الرمضاء، يدوم أثرها في جبهته طول حياته، ويقترح ذلك على اصحابه وزملائه، ويملكه الشوق فيحدو وينشد أبياتا من شعر العراقي والجامي فيتسأل الناس من هذا الأعجمي الذي يغنى ويحدو بلغة لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب و تملؤها ايماناً وحناناً حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء .

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق من سهو وعناء وقلة طعام و شراب، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطئ الوصول، بل يقترح على سائقه أن ياخذ طريقاً اطول حتى يعيش في هذه الأشواق وفي هذا الحنين مدة أوسع، و تشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزعة المشتاق.

وهكذا يطوى محمد اقبال هذه المسافة في سرور و حنين حتى يصل الى المدينة، فيقول لزميله "تعال يا صديقي نيك سروراً وتحدث ساعة و نرسل النفس على سجيته"، فان لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظ بعد طول فراق و شدة اشتياق.

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه هذه السعادة ثم يقول "لاعجب فان المحبين المتيمين اكرم هنامن الحكماء المتفلسين، يا سعادة الجد" وياحسن الطالع، لقد سمع لصعلوك مملوك ان يدخل على السلاطين والملوك.

ولایلیث محمد اقبال وهو فی هذا الفیض من السرور والسعادة ان یذكر امته المسلمة والشعب المسلم الهندی یذكر آلامهما واما لهما . فیذكر كل ذلك فی بلاعة الشاعر وصدق الرائد وما اجملهما اذا التقيا' یقول :

”ان هذا المسلم الیائس الذی لاتزال فیہ بقیة من شمم وایاء وانفة الملوك وعزة الآباء“
لقد فقد مع الأيام یا رسول الله، لوعة القلب واكسیر الحب، ان قلبه حزین منكر و لكنه لا یعرف سر ذلك“.

ماذا حدثك به یا رسول الله عن آلامه و رزیتته، حسبك انه هوى من قمة عالیة“
انه هبط من تلك العلیا التي وصلت به الیها وكلما ارتفع المكان الذی یسقط منه كان المم شديداً فكانت الصدمة عظيمة، فلطف الله بهذه الأمة النكوبة الهاویه من قمة المحمد العالیة .

انه لا یزال الزمان یعادیه، ولا یزال ركبته نائهاً فی الصحراء بعيداً عن غایتة و منزله، حسبك من هذا الأمة وما یسود فیها من الفوضى والاضطراب، انها تعيش من غیر ایام“

”ان غمده فارغ كکیسه فهو اعزل فقیر“ ان الكتاب الذی فتح به العالم وضعه فی بیته الخرب علی طاق تراکمت علیه الاتربة، ونسج علیه العنکبوت“

”انه أصبح بطول عهده بالمغامرات و البطولات لا یفهم لغة المغامرين واصابة الشجعان المجاهدين و قدالغ نغمة المغنیین، وعاش بین الزفرات و الأنین“

”وان عینه فقدت النور، وان قلبه حرم السرور، ان رزیتته انه یعیش ولا یعرف لذة الوصال والحضور“

ثم یذكر الفرق بین ماضیه العظیم الذی كان فیہ موضع رعاية وعناية واحتناء، وحاضرة القاسی الكالح، وكيف صعب علیه ان یتقشف و یعتمد علی نفسه، و یکدح فی الحیاة وما ابلغ قوله :

”انه طائر مدلل، کما یطير على شجرة، کما یلعب على اوراقها“ (۱) فیقال علیه البحث عن

رزقہ فی الصحراء

ہذہ بعض نماذج الرحلات الحجازیۃ، وہی کثیرہ وقد اخترت ثلاثۃ انواع منها، النوع الأدبی الفنی، النوع العلمی، النوع الخیالی، وفی کل نوع من ہذہ الانواع نماذج کثیرہ، وقصرت عملی و بحثی علی اللغۃ العربیۃ، اما اللغۃ الأردیۃ والفارسیۃ فہی اکثر و اوسع و اکثر تأثیرا لأن اللغتیۃ الأردیۃ والفارسیۃ هما نعتا الحب والحنان والرفقۃ ولذلك فاق الشعراء فیہما فی المدائح النبویۃ غیرہم فی التعبير عن عواطفہم وولاءہم .
 یقول الشیخ ابو الحسن علی الحسنی الندوی وهو اديب اللغین وقد قدمتا نموذجا من کتابتہ العربیۃ، وله رحلة حجازیۃ فی اللغۃ الأردیۃ باسم ”من منزلی الی بیت اللہ (مکتبہ بیت اللہ مکہ) وقد جرب کثیر من القراء ان هذا الرحلة اذا قرأها احد لم یتماک قلبہ، و انهمرت الدموع من عینیہ، واجهش بالبکاء ولا یتسطیع احد ان یقرأ ہ قرأۃ واحده .

یقول فی عواطف الہنود والفرس عن النبی صلی اللہ علیہ وسلم ”وقد تحقق عند المطلاعین علی الادب الاسلامی العلمی الذین درسوا آداب اللغات الی تکلمت بہا شعوب الاسلامیۃ فی بلادہا“ و تنوqوا شعرہا أن اللغۃ الفارسیۃ ہی اغنی ثروۃ واسعد حظا فی المدائح النبویۃ من غیرہا و تلہا اردو الی ہی سلیلۃ الفارسیۃ، وان ما قیل فی ایران والہند فی هذا الموضوع یمتاز من غیرہ قوۃ و تأثیرا، ورقۃ و عذوبۃ، وقد تحلت فیہ العاطفۃ اقوی واروع منها فی غیرہ“

وکان من حق الرحلات الحجازیۃ باللغۃ الأردیۃ ان ینظر الیہا، وتدرس، ولكن العواطف الحیاۃ والحنان المتدفق لا یترجم، ولا یقدر علی نقلہ الأديب اکثر قدرۃ علی البیان، وانا اعترف بعجزی عن ذلك .

الحواشی والتعلیقات

- (۱) الاخنس بن شریق .
- (۲) من تفحات الحرم لعلی، الطنطاوی، دارالفکر بدمشق، ص ۹۷
- (۳) الطريق الى المدینہ .
- (۴) الایة ۲۳ من سورة الاحزاب .
- (۵) الطريق الى المدینة، للشیخ ابی الحسن علی الحسنی الندوی .
- (۶) کلمة تقدیم الاستاد عطیة سالم، الرحلة الحجازیة للشیخ محمد امین الشنقیطی .
- (۷) منزل الوحی، لمحمد حسین هیکل .
